دور المناهج التعليمية فى تعزيز السلام

الأستاذ الدكتور / محمد سالم أبو عاصى

عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية بمدينة السادات

مصر

مقدمـــة :

بداية: هل تعد المناهج التعليمية التى نراها اليوم فى ربوع العالم واحدة من العوامل التى تغذى فى الحقيقة والمآل ثقافة السلام فى حياة الإنسانية؟ ولكى يأتى الجواب مدروسًا ومدعومًا بـــالمنطق العلمى، ينبغى أن نعلم مدلول كلمة العلم، ومبدأه وغايته، وإنسانيته، فهذه نقاط ثـــلاث نمهـــد بهـــا للإجابة عن هذا السؤال.

أما مدلول كلمة العلم؛ فقد كان فى الحضارة الغربية إلى عهد قريب قد حصر نفسه فى دراسة العالم المحس الخاضع للتجربة والمشاهدة، ومن ثم أصبح لا يعتمد إلا على الواقـــع الـــذى تدركـــه الحواس، ونبذ كل ما لا يخضع للتجربة.

وبناء على ذلك تنظر الحضارة الغربية المادية إلى العقائد الغيبية على أنها أوهام وأســـاطير، وليس من مهمتنا هنا أن نظهر رجوع تلك الفلسفة عما كانت تراه، إذ تكفلت بذلك بحـــوث علميـــة وفلسفية أخرى كثيرة فى كتب أصول الدين وغيرها.

وإنما المهم فى مقامنا هذا أن كلمة (العلم) فى مناهجنا التعليمية الإسلامية لم تتعرض لمثل هذا الانحراف فى تضييق مدلوله على القضايا المادية.

نعم تعرض العلم عندنا للون آخر من الانحراف، وذلك فى فترة تاريخية محدودة، حيث أصبح ينظر إليه فى تلك الفترة على أنه ما كان متصلا بالعلوم الدينية فقط، لكن هذه النظرة لم تسد طويلا

فى العالم الإسلامى.

يتضح مما ذكرناه الآن أن العلم فى الرؤية المعرفية الإسلامية ليس قاصرًا على المسائل الدينية، وليس هو العلم المادى وحده، بل هو أعم منهما، ومن ثم كانت وسائل تحصيله أعم من تلك الوسائل التى اعتمد عليها أصحاب الفكر المادى من الملاحظة والتجربة، وفى بيان ذلك يقول صاحب العقائد النسفية: «إن أسباب العلم للخلق ثلاثة: الحواس السليمة، والخبر الصادق، والعقل»، وبين شارحه العلامة السعد معنى العلم بأنه: صفه يتجلى بها كل ما يمكن ذكره والتعبير عنه. ثم يقول: إنه ينبغى أن يحمل التجلى على الانكشاف التام الذى لا يشمل الظن، لأن العلم عندهم مقابل للظن [1].

والناظر فى هذا الكلام الدقيق يتبين أننا أمام مجال فسيح لمدلول العلم، وأمام وسائل تتناسب مع اتساع ذلك المجال.

وبوسعنا الآن أن نقول: إن العلم معناه المادى داخل فى دائرة المناهج العلمية الإسلامية، وأنه يعتبر من الفروض الكفائية.

وأما العلم مصدرًا وغاية؛ فمن الله سبحانه وتعالى، وإلى الله، والرؤية المعرفية الإسلامية قائمة على هذا الأصل، ومن ثم فهى تتناقض مع الرؤية الغربية الحديثة.

فمبدأ العلم من الله وحده، الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، قال تعالى: ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [2]. وغايته تحقيق الخلافة فى الأرض، ومعنى ذلك أن عمارة الأرض والعمل فيها لابد أن يكون للخالق الذى استخلف الإنسان فيها، وهذا كله مبنى على العلم الإلهى الذى يستمده الإنسان من الله جل جلاله، قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ** ﴾ [3].

---

(١) شرح العقائد النسفية ص٩٩-١٠٨ .

(٢) العلق: ١-٥ .

(٣) البقرة: ٣٠-٣١ .

وأما إنسانية العلم؛ فالعلم مبدأ وغاية، مادة ووسيلة لله رب العالمين، ولكن هذا لا يسلب العلم إنسانيته، بمعنى أنه إذا لم يستقر العلم على مبدئه وغايته الإلهية، فإنه لا يمكن أن يستقر على مبدأ موحد أبدًا، بل لابد والحالة هذه أن تختلف عليه المبادئ تبعًا لاختلاف العلماء فى العقائد، والثقافات، والبيئات، والمذاهب السياسية.

فنحن عندما نلقى نظرة سريعة على كثير من النظريات التى نسبت إلى العلم، نجد أنها نظريات عرقية وعنصرية، تستخدم العلم لفرض جبروتها وطغيانها، وتحقيق أهدافها وفقًا لمبادئ سياسية أو مطامع إقليمية.

ودليل ذلك ما حدث فى القرن الماضى فى النظرية الدروانية والفرويدية، والنظريات التى يريدون اليوم إشاعتها فى العالم الإسلامى عن تكاثر السكان وصلته بوقوع كارثة إنسانية بناء على قصور الموارد.

ومما لا ريب فيه أن اختلاف المبادئ الذى يؤثر فى اختلاف العلوم واضطرابها لا يساعد على أن تصبح هذه العلوم عاملا على جمع الإنسانية وتأليفها، والارتفاع بمستواها إلى أفق الكرامة التى هيأها لها الخالق جل جلاله.

ومن هنا ندرك أن كون العلم مبدأ وغاية من الله وإلى الله سيكون عاملاً مهمًا فى أن تكون هذه العلوم علومًا إنسانية، بمعنى أن تكون عامل ألفة ومودة وسلام بين الإنسانية.

وما يصدق على المبادئ يصدق كذلك على الغايات، خاصة تلك الغايات العليا؛ فإذا كانت الغاية إلهية كما حددها خالقها سبحانه وتعالى، فإن كل الوسائل سوف تتعاون وتتكامل ليصبح المجتمع الإنسانى موحد الغاية، فإن الاختلاف والعداوة والبغضاء تدب بين الأفراد والشعوب والدول، ومن هنا نجد الاستكبار فى الأرض بغير الحق، وصدق البيان الإلهى إذ يقول: ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ** ﴾ (١).

والسؤال: إذا تناثرت الغايات، وتبددت الأهواء المتناقضة، وتسابقت مشاعر الأثرة بدلاً من الإيثار إلى النفوس، فما الأمر الجامع الذى يخرج الإنسانية من مأزق هذا التناقض بين بناء الحضارة بالعلم وهدمها بالعلم؟

---

(١) فصلت: ١٥ .

والجواب: هو أن تتناسق الغايات الجزئية فى إطار الغاية الكلية العليا، وهذه الغاية هى ما حدده الله للإنسان على هذه الأرض، وهى عبادة الله، عبادة تنشئ العمارة والحضارة وتعمر الكون وتزكى النفس، بهذا وحده يمكن أن تتحقق للعلم إنسانيته.

ومن الوضوح الآن بمكان أن العلم بهذا المفهوم (مبدأ وغاية) الذى يوجه مناهجه التعليمية وتوجهاته الفلسفية وقواعده الاجتماعية، عبادة من العبادات، فإذا تجرد عن هذا الاعتبار تحول إلى علم دنيوى حتى لو كان من علوم الشريعة الإسلامية.

يقول الشيخ الجليل محمد الغزالى ــ رحمه الله ــ فى بيان الفرق بين العلم الدينى وغيره : « إن الحاجز بين ما هو دين محض ودنيا محضة يرق ويكثف بحسب النية، وسلامة القصد، ونبل الغاية»(١).

هذه نقاط ثلاث مهدنا بها لهذا البحث «دور المناهج التعليمية فى تعزيز ثقافة السلام»، والذى سنعرض له من خلال عدة أهداف، وهذه الأهداف تتلخص فيما يلى:

أولاً : العمل على إنبات المناهج التعليمية وفق الرؤية الكونية التوحيدية.

ثانيًا : الجمع الضرورى بين الإيمان والمعرفة.

ثالثًا : العلاقة بين الله والإنسان علاقة حب، وأثر ذلك على الإنسانية كلها.

رابعًا : البعد الأخلاقى فى البحث العلمى.

وقبل بيان هذه الأهداف نلفت النظر إلى أمر مهم، وهو أن الرؤية الكونية لكل حضارة هى التى توجه مناهجها التعليمية، وتوجهاتها الفلسفية، وقواعدها الاجتماعية، وبناها السلوكية، وإنجازاتها العلمية، إن معرفة تلك الرؤى بإيجابياتها وسلبياتها هى التى تمكنا من تقييم الواقع المعاصر وتقديم البدائل.

ولعل من المناسب هنا أن نقول: إن هذه الأهداف الأربعة ليست منفصلة بعضها عن بعض، وإنما هى مرتبطة ارتباطًا لزوميًّا؛ إذ الثلاثة الأخيرة منبثقة من الهدف الأول، ولولا أهمية إبرازها فى إصلاح المناهج التعليمية وبيان خطورتها فى ثقافة السلام لما تحدثت عنها بصورة مستقلة.

الهدف الأول: الرؤية الكونية التوحيدية:

إن هذه الرؤية الكونية التوحيدية المطلوبة هنا، هى: وحدة الرؤية العقلية إلى الكون والإنسان والحياة، بحيث يصدر الناس عن عقيدة واحدة بحقيقة الإنسان والحياة التى يتمتع بها وبالمكونات التى من حوله.

---

(١) خلق المسلم ص٢٢٤ .

ومن المعلوم أن الناس إن صدروا عن عقيدة واحدة فى فهم هذه العناصر الثلاثة الجامعة لابد أن يتفقوا على أصول واحدة فى التعامل مع الكون على أساسها، وهذه الأصول تشكل بدورها نسيج عيشهم وتعاملهم على ظهر هذه البسيطة.

ولا شك أن من أبرز هذه الأصول الإخوة الإنسانية، وعبودية الإنسان لله الواحد القهار، ووحدة المبدأ والمصير فى حياة الإنسان.

فإذا اجتمع شمل الأسرة الإنسانية تحت مظلة هذه الأصول، فمن الممكن أن يتحقق السلام.

الهدف الثانى: ضرورة الجمع بين الإيمان والمعرفة:

وهذا الهدف لابد أن ينهض على دعائم ثلاثة:

أولها: الرؤية المعرفية المتكاملة لحقيقة الكون والإنسان والحياة، هذه الرؤية التى تعتمد على الوحى الإلهى، والوجود، فكلاهما مصدر من مصادر المعرفة، وهذا ما نجده غائبًا الآن فى المناهج التعليمية الغربية، ومن ثم نجد التراث الغربى يقسم الفلاسفة إلى عقلانيين وتجريبيين، وغير ذلك.

وقد دلت التجربة على أن أى نظرية فى المعرفة لا ترتبط بالإيمان بالله ولا تنحدر من مشكاة الوحى فسوف تنتهى إلى فشل ذريع فى مجال المنهج العلمى، ومن ثم إلى فشل فى الإجابة عن الأسئلة الكلية المصيرية.

إن الفوضى التى شهدتها الفلسفة الغربية فى مجال الميتافيزيقا وعجزها المعرفى الواضح، كانت نتيجة إهمال للبعد الإيمانى أو للوحى الإلهى، ومن ثم كان ذلك سببًا فى توجه هذه الفلسفة وجهة مادية، كما أن إهمال البعد الأخلاقى كان سببًا فى هذا الدمار والخراب الذى يتم باسم العلم.

ثانيها: رؤية الكون وحدة متآلفة متناسقة تنطق بحقيقة بدهية، هى وجود الخالق ووحدانيته.

ثالثها: القرآن الكريم يؤكد لنا أن هذا الوجود الكونى إنما ينهض على دعامة من خلق الله له ابتداء، ودعامة أخرى من رعايته له دوامًا [1]. وأن محور هذا البنيان إنما هو الإنسان، وأن المهمة التى أنيطت به هى كما ذكرنا سابقًا عمارة الكون، وإقامة مجتمع إنسانى سليم تشرق فيه العدالة، وتشع فى أرجائه الرحمة والمحبة والسلام.

الهدف الثالث: العلاقة بين الله والإنسان علاقة حب، وأثر هذا الحب على الإنسانية:

لابد أولا قبل أن نبين هذه العلاقة بين الله الخالق العظيم، والإنسان ذلك المخلوق المكرم، من أن ننطلق من هذه الأسئلة الكلية الكبرى: من أين نحن؟ وماذا نعمل فى هذه الحياة؟ وإلى أين المصير؟

---

(١) الإسلام والغرب: د. البوطى ص٣٦.

ولعل معرفة الجواب عن هذه الأسئلة تعد المدخل الذى لابد منه فى بيان هـذا الهـدف، ثـم لا يخفى على فطنة القارئ اللبيب أن شيئًا من الأجوبة الإجمالية عن هذه الأسئلة قد سبق ذكرهـا، ولكننا نعود إلى شيء من التفصيل بعد الإجمال :

أولاً : إن الرؤية المعرفية الصحيحة للكون والإنسان والحياة تضع الرأى من هذا الكون أمام وحدة كلية متناسقة مرتبطة بعضها ببعض، وهذه المعرفة توصل فى نهاية الأمر إلى الإيمان بـالله الخالق المفارق للخلق، فالرب رب والعبد عبد.

فالإنسان لابد أن يذعن فى نهاية الأمر شاء أم أبى إلى أن علاقته بالله علاقة مخلوق بخـالق عظيم أبدعه، وصوره، وعلمه، واستخلفه.

ومن هنا فهذا الإله لم يدع الخلق بلا تكليف، بل حملهم الأمانة، وذلك عن طريق وحيه الذى احتضن نظام هذه الحياة ودستورها، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[1].

وقضية التكليف هذه هى الجواب عن سؤال: وماذا نعمل فى هذه الحياة ؟

وأسس التكليف ثلاثة: عبادة الله، عمارة الكون، تزكية النفس.

ولابد كذلك كما مر ذكره من الإيمان بأن هناك يومًا آخر للحساب (الثواب والعقـاب)، قـال تعـالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨ ﴾ [2]، فهذا الإيمان يؤثر فى سلوك الإنسان بالإحجام والإقدام، وهذا كله يؤثر على حياة الإنـسان وعلـى علاقته بالآخرين.

ثانيًا : أما إقامة هذه العلاقة على الحب، وانعكاس ذلك على بنى الإنسان، فلابد أولا من بيان الفرق بين الرؤية الإسلامية، والرؤية الفلسفية المعاصرة فى هذه النقطة.

الرؤية الإسلامية تكمن فى النفوذ إلى الباطن، على حين الرؤية الفلسفية الأخرى محصورة فـى الخارج فى الظواهر فقط، وبلغة علم المقولات: الرؤية الإسلامية تكمن فى معرفة (الكيف) لا (الكم) .

ولا معنى للمعرفة الكلية إذا لم ترتفع من مضائق الكم إلى فـضاء الكيـف، والـذى تعتبـر «الموجودات الكمية» مظاهر له.

إن محاولة النفوذ إلى الباطن هذه هى التى مكنت العلماء من الحديث عن الحـب كمـصدر كونى فى هذا الوجود.

---

(١) المائدة: ٤٨ .

(٢) الزلزلة: ٧، ٨ .

إن قيمة هذا الحب فى ثقافة السلام تظهر على صعيدين يتضافران ويجتمعان:

أما الصعيد الأول؛ فهو ترسيخ الحب بين الله والعبد، وارتباط ذلك بالإيمان به سبحانه وبالتكاليف الربانية، ثم ترسيخ هذا الحب فى تحسين العلاقات الإنسانية.

فالإيمان الصادق يشعل جذوة الحب لله، ومن تذوق حلاوة الحب لله أحب إخوته فى الشراكة الإنسانية، لأن الجميع من خلق الله، وفى الصحيحين من حديث أنس بن مالك: **(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)**، قال النووى: الأولى أن يحمل ذلك على عموم الأخوة حتى يشمل الكافر والمسلم، فيحب لأخيه الكافر ما يحب لنفسه من دخول الإسلام، كما يحب لأخيه المسلم دوامه على الإسلام، ولهذا كان الدعاء بالهداية للكافر مستحبًّا [١].

ومن الأحكام الشرعية المقررة فى الإسلام أن حب الإنسانية أمر مندوب إليه كما فى الحديث السابق ذكره.

وأما الصعيد الثانى ؛ فيتجلى فى تلازم عاطفة هذا الحب مع التصورات البشرية والأنماط السلوكية، فالحب ينبت فى النفس الإنسانية كل أصول الحياة، لأنه مستمد من واهب الحب وهو الله جل جلاله.

والآن علينا أن نتساءل: ما آثار الحب فى الإنسانية؟

والجواب: تظهر آثار هذا الحب فى أداء الواجبات واحترام الحقوق، وفى جعل المودة أساس العلاقات الإنسانية، وبناء جسور الثقة، والظفر بالغايات الشريفة، وتحقيق قاعدة التعايش السلمى والأخوى بين الإنسانية كلها، والتحرر من الخوف والكراهية والحقد، وإشاعة روح التسامح والحوار، وتوفير مظلة الأمن والسلام، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل [٢].

الهدف الرابع: البعد الأخلاقى فى البحث العلمى:

وهو الذى يجب ترسيخه فى المناهج التعليمية، ويشكل نسيجه قواعد ستة: **الأولى:** (الحرية)، **الثانية:** (ابتغاء الحق والابتعاد عن الباطل)، **الثالثة:** (التجرد عن الهوى)، **الرابعة:** (الأمانة وتكامل المنهج)، **الخامسة** : (الصدق وتجنب الجدل)، **السادسة:** (البيان والأداء).

وأختم بحثى هذا ببيان أن هذه الرؤية المعرفية الإسلامية، هى التى كانت تحكم المناهج الإسلامية إلى عهد قريب، وفى الغالب إلى يومنا هذا، ثم جد أمران:

أحدهما: تأثير الرؤية الغربية فيما يسمى بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، وفى تضييق الخناق

---

(١) شرح الأربعين النووية ص٣٩ .

(٢) قضايا الفقه والفكر المعاصر ٤١٣/٢، وما بعدها .

على مدلول العلم، وهذا سبب انحرافاً بحيث أصبحنا فى بعض بلادنا العربية ندخل العلوم الشرعية تحت ما يسمى بالعلوم الإنسانية؛ والمقصد من هذا أصالة نفى المصدر الإلهى عنها، واعتماد الفكر الإنسانى المجرد مركز هذه العلوم.

ثانيهما: ظهور بعض الرؤى المنحرفة عن مذهب أهل السنة، والتى قام أصحابها بهجمة شرسة على مذهب أهل السنة والجماعة، وكان من جراء ذلك أمران:

الأمر الأول: تمزيق الوحدة الإنسانية، والذى أدى إلى الشحناء والبغضاء والكراهية.

الأمر الثانى: المبادرة إلى التكفير والحكم بالإضلال من غير دراسة ولا إمعان.

ولا نزاع فى أن وحدة الأسرة الإنسانية والقضاء على الفرقة من أهم الأهداف التى جاء بها الإسلام، ولعل من أبرز ما يجسد هذا قوله تعالى: ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ** ﴾(١).

ولا نزاع كذلك فى قاعدة عدم زوال الوصف بالإسلام إلا بإنكار المعلوم من الدين بالضرورة، ولا يخرج الرجل من الإسلام إلا بجحد ما أدخله فيه، ويترتب على ذلك: عصمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم إلا بحق مقرر فى شريعة الله، وحرمة تكفير المسلم لمسلم آخر لاعتقاده ما فيه خلاف أو تأويل معتبر.

ولابد – كى تخدم المناهج التعليمية ثقافة السلام – من التخلص من هذين الأمرين.

ولابد كذلك من مراعاة التربية بمختلف صورها؛ فالتعليم بشتى أنواعه والتربية بمختلف صورها هما الوسيلة الكبرى لإنشاء الأجيال التى تؤمن بثقافة السلام، وإن الإسلام وهو يحث على التعليم، ويركز على التربية، لينظر إلى ذلك على أنه أساس وقاعدة لضمان ترسيخ المفاهيم الصحيحة فى نفوس الخلق نحو خالقها، وما تتضمنه تلك المفاهيم من أثر بالغ فى ضبط السلوك الإنسانى الذى يحقق الفوز والسعادة الإنسانية.

إن التربية تجسد أهداف الأمة التى تعيش من أجلها وتموت فى سبيلها؛ تجسد العقيدة المستقرة فى قلوبها، واللغة التى تنسج بها حضارتها، والمثل الأعلى الذى تتطلع إليه، والتاريخ الذى تفتخر به.

لابد من تربية صحيحة تنتظم كل سنوات العمر، ومراحل الدراسة، وتربية تصلح القلوب، وتزكى العقول، وتصون السلوك، وتحقق أهداف كل العلوم؛ ليكون الإنسان قادرًا على الإبداع.

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

إن مهمة التعلم قبل إعطاء المعلومات تكوين القلب الذى يستخدم المعلومات للخير لا للـــشر، وللنفع لا للضرر، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالتربية.

ومن هذا كله نخلص إلى أن التعليم القائم على أسس علمية صحيحة ومناهج تربوية مستقيمة من أهم عوامل تعزيز السلام، ومن هنا ندرك حرص الإسلام على أهمية العلم وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة وذلك لأمرين:

الأول: لمعرفة علاقة الفرد بخالقه، وكذلك علاقته بأفراد المجتمع الآخرين، والالتزام بما عليه من حقوق وأداء ما عليه من واجبات.

ثانيًا: ارتباط الجهل بالانحراف السلوكى، ومن ثم وجب الاهتمام بالتعليم كوسيلة من الوسائل التى تقلل من نسبة الانحراف فى الأسرة الإنسانية.